الأصابع العارية

بقلم

محمود البدوى

وقف شاب فى ساعة الأصيل امام احد البيوت القديمة فى عزبة النخل يتلمس الجرس ، فلما لم يجد استجابة فى الداخل قرع الباب بيده ثم عنف .. وسمع نباح كلب فى الداخل ثم اقداما تقترب فى ممشى الحديقة وصوتا خشنا يزجر الكلب .

وانفرج الباب الكبير وهو يصر وظهر رجل طوال ، براق العينين على العشر كان يرتدى صدارا من الصوف الداكن وطاقية وماديا ، وبيمناه يده سلسلة صغيرة تدلى منها مفتاح .

ونظر الرجل بعينين نفاذتين الى الشاب ..

وسأل الطارق بصوت هادىء

ـ اهذا بيت السيد مذكور ..؟

ـ نعم ...

ـ وهل هو موجود ..؟

ـ انا مذكور ..

ـ انى مختار المهندس الذى حادثت حضرتك فى التليفون امس ..

ـ اهلا وسهلا .. تفضل يا بنى ، تفضل .

واحتار مختار الصنعة وهو ينظر بخوف الى الكلب الضخم الذى وقف فى حالة توثب بجوار سيده ..

ولاحظ السيد مذكور ذلك .. فقال

ـ لا تنظر اليه بخوف هكذا .. فهى الكلاب حاسة ادراك خارقة ، ولا احب ان تكون بينك وبينه عداوة ..

وابتسم مختار ومشى فى حديقة موحشة كثيفة الاشجار فيها انواع مختلفة من اشجار البرتقال والليمون والورد ، كما زرعت نخلتان طويلتان وبنيت فسقية صغيرة فى وسط الحديقة يمرح فيها البط ..

وبدت الحديقة تحت نظره بمائجه لم تتناولها يد منذ مدة بالتشذيب . وارضها مفروشة فى جانب ومترنة فى الجانب الآخر .

ولاح البيت وراء الحديقة من طابق واحد وقد خيم عليه السكون المطبق ولم تظهر بادرة انفاس تتردد فى داخله .

ودفع السيد مذكور الباب ووراءه مختار الى ردهة بدت معتمة حتى عن النهار الباهر .

وفي حجرة واسعة جلس مختار ينظر حواليه الى أشياء كثيرة وضعت في غير نظام ولا ترتيب . فقد رأى تماثيل دقيقة ولوحات فنية رائعة وعددا مختلفة وآلات حداده ونجاره وساعات حوائط ومسبحات وكتبا ..

وتركه السيد مذكور جالسا وحده في الغرفة ودخل في جوف البيت . وتأتى له من هناك صوت ناعم ... وكاد من شدة حنوه لا يبين .

ورجع مذكور الى غرفة الجلوس . وأغلق وراءه بابها . وأخذ يرحب بمختار ويحادثه بعودة .. وسمع نغمة خفيفة على الباب المغلق فنهض وخرج مصراع الباب حركة خفيفة وبصر مختار بكف بيضاء وأصابع عارية تمتد بصينية القهوة .

وشربا القهوة وأفاضا في مختلف الأحاديث ولاحظ مختار أن سائس البيت وان جاوز الستين من عمره ولكنه ما زال موفور الصحة . ولا يزال يجري في عروقه الدم . وقد خلا وجهه من التجاعيد ..

كما لاحظ انه لا يدخن وانه يشرب القهوة بتؤدة وهو يستلذ مذاقها ... وانه على ثقافة واسعة ... وعلم بالميكانيكا والكهرباء ..

وقال السيد مذكور وهو يشير لأول مرة الى المهمة التي جاء مختار من أجلها . والآن تفضل لأريك الماكينة .

ونهض مختار ومشى به مذكور في ردهة طويلة معتمة الى الناحية الخلفية من المنزل وفي قاعة صغيرة رأى آلة صغيرة على قاعدة من الاسمنت .

وقال مختار في سرور ..

ـ انها تبدو رائعة ..

ـ وقد تعجب اذا علمت انني ركبتها كلها بيدي .

ـ هذا عظيم ..

ـ ومعظم العدد اشتريتها من السوق .. وبعضها صنعته بنفسي .

ـ وكم كلفتك ؟

ـ حوالي مائة وخمسين جنيها ..

ـ مثلها تساوي الآن اكثر من خمسمائة ..

ـ لم يكن هذا قصدي ... واني كنت أود أن أصنع شيئا في حياتي .. شيئا ذا قيمة وقد صنعته ..

وبدا على مذكور الزهو والافتخار . ومد قامته .. لما سمع صوت الكلب الحديقة .

وكان مختار قد انحنى على الآلة يتفحصها بدقة ثم رفع رأسه وقال

ـ بديعة ..

وأدارها مذكور « ونكت » وخرج « العادم » والكلب نبح والرجل قد اغرورقت عيناه من الفرحة ..

وقال لمختار بصوت الحالم

ـ ما أجمل ان تصنع شيئا ينبض تحت سمعك وبصرك .. شيئا يتحرك في حركة رتيبة كخفقة القلب .

وقال مختار يبدو من حماسه الرجل

ـ انه عمل رائع .. انه خلق .

وقال مذكور وعيناه تلمعان :

ـ لقد أحببت الوابورات منذ الصغر .. وكنت أصنع الوابور الصغير من الطين .

وعيدان الكبريت .. وأحمله بدور حتى احتضر النهار .. وأخرج بتلك العربة التي تراها على وجهي الساعة.

وسأل والماكينة لا تزال دائرة :

ـ والآن ما العيب يا باشمهندس ؟

ـ في تصوري انه في الكربن ..

ـ وليس في الحداقة .. ولا السنتر .

ـ لا .. انه في الكربن .. انه ضعيف الضغط .. ولذلك قلت السرعة .

ـ وما الرأي ؟

ـ نستبدله .. أو نصلح غيره ..

ـ ومتى ارسله لك ..؟

ـ سأفكه الآن وآخذه معي في سيارتي .. وجلس الرجلان يمكان الصواميل .. وقال مختار :

ـ سألقي نظرة أخرى على العدد كلها ما دمنا شرعنا نفك الوابور ... فأرجو أن تأتي لي بمصباح ..

وغاب مذكور قليلا ثم رجع .. وبعد دقيقة واحدة .. سمع نقرا خفيفا على الباب كمثل الذي سمعه أول مرة .. وامتدت الاصابع العارية بالمصباح .. وهمس مذكور بشيء لم يسمعه مختار .. وكان قد رفع رأسه بدافع الفضول واخذ ينظر الى هذه اليد الخرقاء التي تمتد في الظلام .

ولاحظ مذكور ـ عند ذاك ـ تعثر مختار عن ساعده .. حيث كان قديما توك آثاره في الذراع اليمنى ..

فسأل :

ـ أهذا من الآلة ... ؟

ـ لا .. انه من الانسان ..

ـ من الانسان ..؟ كيف ..؟

ـ كنت مع النسناس الذين دعوا الى الاسماعيلية واطلق الانجليز عليهم الكلاب المسعورة ..

ـ سميت هذا .. وسيظل الانسان هو وحش الوحوش .. جميعا .. !! منذ فجر التاريخ ... منذ قيرون ... الى القرن العشرين عهد الفرنسيين في الجزائر ..

وهو وحش الوحش ..

ـ هذا صحيح ..

ـ ما من شيء يتفنن في تعذيب أخيه .. كما يتفنن الانسان ..

ما من حيوان أو جارح من جوارح الطير .. ما من مخلوق على الاطلاق .. سوى الانسان ..

وكان العشي قد زحف وارداد السكون ـ وقطع السكون صوت الكلب وهو ينبح بشدة .. فنهض مذكور الى الباب ففتحه واطل منه ... ثم رجع وهو يقول وعلى وجهه الابتسام ..

ـ الناس تتصور اني أدفن كثيرا في الحديقة .. ويصير هذا الكلب يا ربي كيف كنت أعيش وأنام ..

ورفع مختار رأسه وابتسم في ود وهو ينظر إلى الرجل فقال هذا وكأنه قرأ ما يدور في رأس مختار :

ـ ولهذا السبب أصبحت لا أشتغل

احدا فى بيتى لا حبايبى ولا خادم .. واعمل كل شىء بيدى .

ـ فى العمل تسلية ولذة ..

ـ تصور انهم كانوا يسرقون التحف والتماثيل التى لا تقدر بمال ويبيعونها بابخس الاثمان .. وكنت اتعقب واظل ابحث عنها حتى استردها .. واخيرا اغلقت النوافذ والأبواب .. وعشت وحدى واسترحت ..

وسمع النقر على الباب ... واطلت الاصابع المعروقة تحمل صينية الشاى .. وامتدت بها اكثر واكثر حتى بدا المعصم كله فى ضوء المصباح .. وبدت يد انثى لينة ورقيقة الاصابع فى جمال ساحر ..

ورفع مختار رأسه .. وطالعه الغموض من جو البيت .. وفحص بريقه .. وهو يود ان يسأل

لمن تكون هذه الأصابع .. اذن ما دمت تعيش وحدك ..؟

ولم يقو مختار على السؤال فصمت وتناول كوب الشاى واخذ يرشفه فى بطء شديد وهو يتأمل . ثم سأل ليقطع حبل السكون :

ـ هل الوابور .. لرى الحديقة بدل البئر .. أم لانارة البيت .. ؟

ـ للاثنين معا .. وساعطى النور والماء للجيران مجانا .. أحل دون آخر على الاطلاق ..

ـ هذا عمل خير ..

ـ بعض الجيران .. فقراء .. وفى اشد الحاجة الى النور والماء .. وما اللح على القلب .. ان ترى النور يدخل الى هذه البيوت المظلمة .

واستطرد مذكور وقد برقت السعادة على وجهه :

ـ لقد كانت أمنيتى منذ أحلت الى المعاش وجئت الى هذه المدينة الصغيرة .. ان ارى منازل الفقراء التى حولى تضاء بالكهرباء .. وان أرى الاشجار تزرع والارض مخضرة والورود متفتحة هنا .. وان أحول كل شىء الى حياة ..

وصمت قليلا ثم أضاف فى حماسة :

ورغم انى اعيش وحدى ولكنى اقول لك عن تجربة .. ما أجمل الحياة لمن يعمل ويكد لغاية نبيلة ..

ـ هذا حق ..

وشغل بما فى يده برهة ثم نظر الى الشاب بعطف وسأله :

ـ أتتزوج ياسيد مختار ؟ ..

ـ ابدا ..

ـ لماذا .. يا بنى .. اسرع بالزواج .. والا ستشعر بالضياع وشيخوختك .. وتكون كمن تقطعت به الاسباب فى الصحراء .. لا ماء ولا شجر .. عجل والا ستقع فى نفس غلطتى ..

ـ وحضرتك لم تتزوج ...؟

ـ ابدا ... كما ترانى . وحيد ... ضائع ..

ونظر مختار الى وجه الرجل ... ثم عاد الى ما فى يديه وهو يفكر . هل هذا الرجل يمكر به ... ام انه يستخدم فى يديه الشياطين ... من هى

صاحبه اليد التي رآها اذن اكثر من مرة ؟

من تكون .. من ..؟

وهمست براسه الاسئلة ..

ثم استغرق في عمله حتى انقضى جزء من الليل ..

ولما فرغ من العمل .. نهض مختار مودعا والعمومي والسكون يخيمان على البيت .. وحمل الكرنك في سيارته وانطلق ..

***

وعاد مذكور فاغلق بابه بالمفتاح .. وكان الظلام يحيم والريح تصفر بين الشجر الملتف والكلب يتبعه وهو يهمهم بدنمه ..

ودخل مذكور البيت واغلق الباب وراءه وطالعه ضوء المصباح الخافت والسكون العميق ..

ونظر الى التماثيل الصغيرة والكبيرة بدت له كالاشباح الخرساء .. كما بدت الصور كخيال الظل .. وشعر بمرارة قاتلة لانه ذكر وحدته المرة للشاب الذي تركه منذ لحظات ... وبشئ حياته . واحس بغرامه القاتل.

وبدلا من ان يدخل الغرفة الاولى.. وكان النور فيها قد انطفأ .. دخل غرفته .. الغرفة التي لا يشعر فيها بنهار ولا ليل ..

واستلقى على السرير في الظلام دون ان يشعل المصباح الصغير .

وكلما اشتدت الريح في الليالي الظماء كان يحس بحركة الشجر ثم بتحرك الاشباح .. ويتصور ان احدا

سور السور ... وجاء لسرقته او قتله فيحزن عند العثور لانه ليس عنده من صلبه ولد يحميه ويرد عنه عائلة الليل..

كان يشعر بقشعريرة من مجرد التفكير في انه سيمسك المسدس ويطلق النار على اللص الذي يتسور السور في الظلام .

وراح في دوامة من القلق والعذاب .. ثم اغلق عينيه في الظلام واسترخى واخذه النوم واحس باصابع عارية تضم عليه العطاء ...

***

وبعد ايام قليلة رجع مختار في ساعة العروب يحمل له الكرنك الجديد .. ومر به مذكور جدا .. واتفقا على ان يركباه في الصباح التالي . بعد ان يقصر الشعر بمقدار عقده ... لتكون سرعة الدوران طبيعية .

وطار مذكور من الفرحة وهو يتصور امنيته قد تحققت بعد طول جهاد وانه صنع شيئا نافعا له ولخيرانه الفقراء ..

***

وفي اليوم التالي ركب مختار سيارته في الصباح المبكر واسرع بها الى بيت الرجل وضغط على الجرس ثم قرع الباب فلم يتلق استجابة وتمهل برهة ثم عاود الطرق بعنف جم بعدها السكون ... وانتابه هاجس حمل القشعريرة تسري في بدنه فالتفت حواليه فلم يجد احدا بباله ، ثم ضغط على الباب بكل قوته فلان تحت جسمه وانفرج وهرول مختار الى الداخل .

ووجد باب البيت مفتوحا .. فولج منه ووقف في الصالة وقد شله الرعب

.. فقد وجد الرجل صريعا وعارتا فى دمه اذ ضرب بآله حاده .. والطلب بجواره ضرب نفس الضربة ... ولكن ليس فى نفس المكان وظل يرجف حتى رقد بجوار سيده

ثم تلفت مختار فى حزن والدنيا تدور به .. فوجد بابا مفتوحا وأشياء مبعثرة على الارض .. فأسرع الى هناك ووجد سيدة رائعة الحسن مكممه فى فمها وموثوقه اليدين والرجلين ومربوطه فى السرير .. وقد طمئنت سكين فى كتفها ولكنها لا زالت تنفس وتوجع.

وفك عنها الوثاق سريعا .. ورفع يدها .. وتذكر الاصابع العارية التى رآها أكثر من مره وفتش بها .. ووضع راس السيدة على صدره ومسح عنها الدم وتأمل وجهها الجميل .. وهو يفكر فى صلتها بالرجل الذى مات .. وكانت الاشياء المبعثره حوله تؤكد له ان الجريمة كانت للسرقة .. ولا علاقة لهذه السيدة المسكينة بها ..

وكان مذكور قد آوى هذه السيدة الجميلة فى بيته بعد ان استشهد والدها ليصونها من الدنس ويحفظها من ذل الفقر .

ولا تدرى بعد هذه الفاجعة كيف تواجه الحياة .

ولكن مختار تناول اصابعها العارية ومسح عليها برفق وحنان ..